الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

ليبراليون

عقيل عبد الحسين
باحث واكاديمي

هل يتجه النقد الى النصوص فحسب؟ واية نصوص؟ تلك التي نراها منذ اجدادنا العظام نصوصاً. اي تلك التي تتوفر فيها عناصر اللغة والمعنى الشريف والصور والصنعة. اما ما عداها فلا يستحق الا ان نهز رؤوسنا ونحن نطالعه كما كان يفعل الاصمعي وابو عمرو بن العلاء من الذين يسمون الجديد "محدثاً" ويحتقرونه لانه لا يتضمن شروط النص ومواصفاته. اردت ان اقول هل يحق لنا ان نوجه النقد الى الدراما التلفزيونية كما فعل صلاح فضل في كتاب عنوانه "نقد الصورة" وكما فعل عبد الله الغذامي في كتاب خصصه لهذا الموضوع اسمه "الثقافة التلفزيونية"؟ هل يحق لنا ان نخصص مقالاً نقدياً لحلقة من حلقات المسلسل التلفزيوني السعودي الشهير "طاش ما طاش"؟ وكان عنوانها (ليبراليون.. ولكن) وكانت تتضمن نقداً حاداً موجهاً لفئة ظهرت في المجتمع العربي منذ اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين اي منذ عهد الطهطاوي ولطفي السيد مروراً بسلامة موسى وطه حسين والعقاد وصولاً الى اكثر الكتاب والمفكرين العرب في هذا الوقت. ولكن هذه الفئة ظلت محدودة الاثر في المجتمع العربي ذي البنية الاجتماعية والدينية والثقافية المحددة والثابتة الى حد الجمود. وظلت تتداول الشعارات نفسها والافكار ذاتها وتمارس السلوك عينه. واسوأ من ذلك انها فئة توسعت لتصل الى حافة الشعبوية بتأثير حملات التثقيف الشعبي والتلفزيون والمدارس العامة التي أصبحت تخرج متعلمين متجانسين تربوا على شعارات الليبرالية سواء كانت الاوروبية ممثلة بالثورة الفرنسية او العربية ممثلة ببداية عصر النهضة برموزه الثقافية كالطهطاوي والدينية كالأفغاني ومحمد عبده والسياسية كالكواكبي والفكرية كلطفي السيد.

ان تحول الليبرالية من النخبة الى العامة جعلها تبدو مضحكة إذ هي ستصير مجرد شعارات وصيغ مكررة وسط بنية اجتماعية وثقافية وفكرية راكدة لا تقبل الجديد وتعده طارئا ايا كان ذلك الجديد سلعة او منهجاً غريباً او فكرة او اتجاهاً فكرياً وتعده آنياً لا تتجاوز مدة بقائه وقت استهلاكه وسرعان ما يلقى ويقذف الى الشارع. ولعل الجانب المؤلم الذي يجعل الدراما عامة فعالة ومؤثرة ويجعل "طاش ما طاش" تحديداً مميزاً يتمثل في الاشارة الى قوة الثقافة العربية التقليدية فهي قادرة على محاصرة الافكار والقيم الجديدة. ولفظها خارجاً بآليات متنوعة من اشدها خطراً التأكيد على غربتها واجنبيتها . كما كان يفعل الازهريون مع طه حسين فيردون آراءه الى المستشرقين والى الغرب- او التأكيد على الفتها وقربها من الانسان العادي بما يجعلها لا تتجاوز الكلام ولوك الشعارات.

قد يظن المشاهد ان "طاش" في هذه الحلقة تطبق شعار (نقد السوية عدل في الرعية) فتساوى بين نقدها الحاد للمتطرفين من الدينيين ونقدها الليبراليين العاجزين عن الفعل والتأثير في المجتمع الذي اصبح نهباً للتطرف والمتطرفين من الدعاة والخطباء.. ولكنني اعتقد بأنها وهي تؤشر ظاهرة خطرة كتلك التي ذكرت تعمل على تعميق شعبوية الليبرالية وتأكيد خلوها من اي مضمون حقيقي او تأثير جاد، لتقدمها عاجزة عن الفعل والمواجهة . اعني مواجهة الاصولية المتطرفة . ولتقدم تصوراً متشائماً للواقع، فليس ثمة امل في الخلاص من هيمنة الثقافة التقليدية وليس من امل في اي تغيير قد يطول البنية الاجتماعية او العقلية او السياسية للمجتمع العربي.

وإذا كان من فائدة تحققها هذه الحلقة من تلك الدراما المميزة فهي الدعوة الى التخلص من المذاهب الفكرية الجاهزة وما يصاحبها من شعارات والبحث عن بديل ينبع من متطلبات المجتمع وحاجاته الى الحياة والى التغيير.

هل تنتصر الديمقراطية و ينتهي الإرهاب في العراق؟

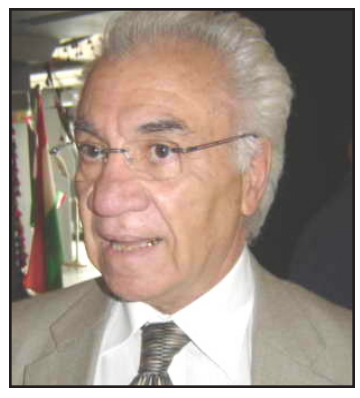

كاظم حبيب
كاتب سياسي - المانيا

يشغل بال كثرة من العراقيات والعراقيين في الداخل والخارج هذان السؤالان منذ سنوات، وهم على حق في ذلك، لا لأن الشعب في العراق لا يريد العيش في حياة الحرية والديمقراطية أو خضع للعيش في ظل الدكتاتورية والقمع والخضوع لهما سنوات طويلة، بل لأسباب أخرى موضوعية لا يمكن تجاوزها وتستوجب العمل لتغييرها من جهة، ولأن السياسات التي انتهجت منذ سقوط النظام الدكتاتوري في العراق لم تكن سياسات صائبة وعقلانية لا من جانب قوات الاحتلال الأمريكية –البريطانية والحاكم المستبد بأمره بريمر والبيت الأبيض فحسب، بل بسبب السياسات الخاطئة والقصيرة النظر وغير العقلانية في الكثير من الأحيان التي مارستها الأحزاب والقوى السياسية العراقية من جهة أخرى، التي سمحت كلها بتفاقم الصراع الطائفي وإلى اصطفاف المزيد من القوى على أساسه واستقطابه، وإلى تفتت في القوى الديمقراطية العراقية وعجزها عن إيجاد أرضية مشتركة من الأهداف والمهمات التي تقف عليها وتناضل من أجلها، وإلى تفاقم الإرهاب وتنامي الأعداد المشاركة فيه والقوى المساندة له محلياً وإقليماً ودولياً، ويوماً بعد آخر تظهر اعترافات جديدة لقوات الاحتلال الأمريكية –البريطانية عن الأخطاء الفادحة التي ترتكبها في العراق، وأخرها جاء على لسان الرئيس الأمريكي بوش في أثناء زيارته المفاجئة إلى محافظة الأنبار واجتماعه بالنخبة السياسية الحاكمة في العراق. ولكننا لم نسمع حتى الآن أي اعتراف بالخطأ من أي حزب أو قوة سياسية عراقية تشارك في العملية السياسية أو خارجها، وكأنها معصومة من الخطأ أو أن الاعتراف بالخطأ رذيلة ويعرض صاحبه إلى خسارة سمعته وتأييد الناس له، وليس العكس. وهي إشكالية كبيرة ناشئة عن حقيقة أن الأحزاب السياسية العراقية لا يمكن أن تخرج عن جلدها، عن واقع المجتمع الذي نشأت فيه والظروف التي نمت ومارست عملها فيها والرؤية المتصارعة لديها بين الديمقراطية والشمولية والتي لا تنتج غير "الشموقراطية" على طريقة المواطن الكردي الذي سئل مرة ماذا تريد أن تأكل خرما (تمراً) أو مشمشاً، فأجاب فرحاً بأنه يفضل أكل الـ (خرمش)، أي الاثنين معاً. وإذا كان هذا الخيار الذكي في الأكل ممكناً، فأنه غير ممكن ومحبط في السياسة. إذ أن النصر سيكون للشمولية على الديمقراطية في مجتمع ذكوري لم يشهد الديمقراطية في حياته السياسية الفعلية حتى اليوم، حيث يحيط بها الإرهاب وقوى فاسدة كثيرة وقوى طائفية نهمة لا تعرف الرحمة في إفقار ثروات المجتمع وقوى إقليمية ودولية لا تفكر إلا بمصالحها أولاً وقبل كل شيء، إضافة إلى ضعف التنمية والبرجوازية والقاعدة المادية للمجتمع المدني.

إن هذا الواقع المعقد والصعب يفترض أن لا يحرمنا من رؤية وجود بصيص أمل قوى أو أفق رحب لانتصار الحرية والديمقراطية في العراق وإسقاط الإرهاب وقواه المتخلفة التي لا تعود إلا لماض أسود سحيق فات أوانه، وأن النظم السياسية التي تريد إقامتها وفرضها على المجتمع لا يمكن أن تنتصر لفترة طويلة أو تسود في أي بلد في ظل القرن الحادي والعشرين، وأن الحضارة الديمقراطية والإنسانية الحديثة ونضال شعوبها ستكنس هذه النظم وتلك القوى وتضعها في مزبلة التاريخ شاءت ذلك أم أبت.

كل الدلائل التي نشاهدها ونتلمسها، برغم الغيوم المتلبدة في سماء العراق، تؤكد أن لا مستقبل لاستمرار وجود قوات الاحتلال ولا مستقبل للاستبداد الفكري والسياسي، ولا مستقبل للإرهاب في العراق ولا للقوى الظلامية التي تريد العودة بالبلاد الى قرون خلت وجعل الشعب يعيش اليوم في الماضي الغابر. إن المستقبل للحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان وحقوق القوميات والعدالة الاجتماعية، وأن القوى الأجنبية ستخرج حال تعزز القدرات الوطنية العراقية وليس الطائفية السياسية، إن المستقبل يتحرك صوب ممارسة مبدأ "الدين لله والوطن للجميع"، وليس صوب مجتمع طائفي مقيت وحياة كلها ممنوعات حتى من البسمة والفرحة والبهجة والزينة والتمتع بمباهج الحياة السليمة والفن الأصيل والتمتع بحرية الفرد والجماعة وحرية العبادة والتفكير والعمل.

ولكن زيادة البصيص المرئي في نهاية النفق وتحويله إلى خروج منه والتمتع بضوء يشرق على العراق كله وإلى أفق نير ومدني ديمقراطي يثق بالوصول إليه الجزء الأكبر من المجتمع يشترط العمل الجاد من جانب القوى التي تتحدث عن التزامها بالديمقراطية والتي تبدو اليوم ضعيفة مفككة على مستوى العراق كله وعاجزة عن إيجاد التعاون والتنسيق في ما بين قواها العديدة كما أنها عاجزة حتى الآن على كسب ثقة المجتمع بها أو أن بعضها يخسر تلك الثقة بسبب سياساته الخاطئة إزاء المجتمع والظواهر السلبية المتزايدة في تصرفاته وسلوك أتباعه في الحكم، أو بسبب تنقلات بعض عناصره من موقع إلى أخر ركضاً وراء منصب "رفيع" يجلب له النفوذ والجاه والمال، ولكن لا يجلب له بأي حال الاحترام والثقة والود.

إن المقصود بالقوى الديمقراطية العراقية التي أتحدث عنها هنا ليست حزباً واحدا، بل مجموع القوى التي تتحدث عن الديمقراطية وتتبناها، سواء أكانت موجودة منذ عقود أو أعيد تشكيلها في أعقاب سقوط النظام أو أنها شكلت حديثاً. وهي قوى عربية وكردية وتركمانية وآشورية وكلدانية، منها من هو في الحكم ومنها من هو خارج الحكم ولكنهم جميعاً في العملية السياسية وبهذا الشكل أو ذاك. والسؤال كيف يمكن لهذه القوى أن تجد اللغة المشتركة والأهداف المشتركة في ما بينها لتتجلى في برنامج مشترك وآليات مشتركة لتعاونها السياسي والاجتماعي والاقتصادي في ظل الأوضاع الراهنة المعقدة.

تبدأ هذه العملية عبر إعادة النظر بالمسيرة السابقة ورؤية الأمور بعين نقدية وفكر متفتح وثقة بالنفس قبل وبعد سقوط النظام والعمل على التجديد والتحديث باعتبارها مسألة أساسية للتقارب في ما بين القوى ذاتها ومع فئات المجتمع. من المؤلم حقاً أن ترى حزباً عريقاً مثل الحزب الوطني الديمقراطي الذي يحمل إرثاً ديمقراطياً جلياً يعيش اليوم في انقسام وصراع وعاجز عن التأثير في المجتمع وتعبئة جمهرة كبيرة من الناس الديمقراطيين المستعدين للعمل في صفوفه ومعه، في حين يفتقر إلى الشباب في صفوفه وإلى عقلية وروحية وحيوية الشباب ومرونته في التعامل مع الأحداث والمتغيرات. إن التخندق والصراع حول المراكز القيادية في الحزب ليس هو جوهر وجود الحزب الوطني الديمقراطي ولا يفترض أن يكون، بل المهمات التي يفترض أن ينجزها في العراق. فهذا الحزب كان ولا يزال في مقدوره أن يعمل في صفوف الطبقة الوسطى التي لا تزال ضعيفة، ولكنها تنمو باستمرار، كما أنه يمكن أن يعبر عن مصالح البرجوازية الصناعية والتجارية الجديدة المتطلعة للنمو والتقدم، التي لا تجد حالياً إسناداً حكومياً فعلياً، إذ أن وجهة الدولة كلها متركزة على الاستيراد بدلاً من التصنيع حتى بالنسبة للمناطق الآمنة من العراق ومنها إقليم كُردستان العراق. وهكذا الحال بالنسبة إلى القوى السياسية الديمقراطية واللبرالية الأخرى، بمن فيها الحزب الشيوعي العراقي أو القوى الماركسية عموماً، التي لا تزال، كما أرى، بحاجة إلى حركية واعية عالية المستوى تتجاوز الأطر الجارية حالياً، برغم المصاعب والمخاطر التي تحيط بحياة الإنسان من جانب قوى مختلفة، وتحتاج إلى جهد ومثابرة، إذ أن المستقبل للقوى الديمقراطية واللبرالية العراقية وليس لأي قوى أخرى ظلامية أو تكفيرية أو إرهابية تستخدم السلاح لفرض إرادتها وفكرها على الدولة والمجتمع.

إن الشارع العريض الذي تتحرك فيه مختلف أطياف الأحزاب والقوى والكتل الديمقراطية العراقية يسمح لها، وفي ظروف المرحلة ومهماتها الراهنة، أن تتحرك بمرونة وفعالية متميزة إزاء فئات كثيرة في المجتمع، سواء أكانت البرجوازية الوطنية أم البرجوازية الصغيرة، بمن فيها الكسبة والحرفيين، أم فئات المثقفين والطلبة العراقيين، أم العمال والفلاحين، وطرح برنامج يتضمن عدداً صغيراً من الأهداف والمهمات التي تجتمع عندها تلك القوى السياسية والفئات الاجتماعية والتي تمس السياسة الخارجية والداخلية، تمس الوجود الأجنبي وسبل معالجته بتطوير القوات الوطنية العراقية، والتطوير السياسي الديمقراطي والتصنيع وتحديث الزراعة واستخدام منجزات الثورة العلمية، ثورة الاتصالات، ومكافحة البطالة والفساد، والاستثمار العقلاني لموارد الدولة المالية وقواها المنتجة، وتنشيط عملية التنوير الاجتماعي والديني، وكذلك تطوير الحياة الثقافية والإعلامية والتربوية في البلاد وتأمين الخدمات العامة.

الأحزاب والقوى الديمقراطية واللبرالية العراقية تعيش مرحلة تحد لا مثيل لها، وعلى عاتقها تقع مهمة خوض هذه المرحلة، ولكن يفترض فيها أن تتسلح بالثقة بالنفس وبالمجتمع وإجراء التغيير في بنيتها واتجاهات وأسس تفكيرها وآليات عملها السلمي والديمقراطي لتطوير المجتمع وعلاقتها ببعضها وبفئات المجتمع وتجليات ذلك في برنامجها المنشود. إنه الطريق الأوفر حظاً لمكافحة الإرهاب وتحقيق الاستقلال والسيادة الوطنية والحياة الحرة والديمقراطية المزدهرة للعراق وشعب العراق بكل مكوناته القومية وبعيداً عن الصراعات القومية والدينية والطائفية.

مآثر من تراث الأنباط في الأردن

فؤاد يوسف قزانجي
اكاديمي

> ظهر الأنباط في الأرجح بالقرن الرابع قبل الميلاد في منطقة شرق نهر الأردن. وفي القرن الثاني قبل الميلاد اصبح الأنباط يشكلون مملكة ، وكان ملكهم الأول هو الحرث الأول الذي تولى الملك في عام (١٦٩ ق.م.) تقريبا ، وأمتد نفوذ المملكة شمالا حتى اطراف دمشق ، كما احتلت منطقة واسعة جنوبا تصل الى أجزاء من سيناء وصحراء النقب..

كان سكان مملكة الأنباط خليط من الادوميين والآراميين والعرب. وكانوا يتحدثون بلغتين هما: الآرامية والعربية، لكنهم كانوا يتعاملون مع العالم الخارجي وفي التجارة ويكتبون باللغة الآرامية.

كانت حياة سكان الأنباط تعتمد بالدرجة الأولى على تجارة القوافل التي تنقل البضائع من دمشق الى الجزيرة العربية والخليج حتى اطراف الهند وبالعكس.

كانت المدينة الرئيسة تسمى سلع من الاسم الكنعاني او العبري سيلع الواردة في العهد القديم بمعنى الحجر. وسماها الآراميون (السيق) أي الشق او المنفذ بين جبلين او صخرتين، لان الولوج الى المدينة يجري عن طريق ممر صخري ضيق. وذكرتها التواريخ العربية الأولى ايضا باسم سلع وقالوا عنها أنها حصن بوادي موسى بقرب بيت المقدس. وأسموها ايضا (هاجرة) وأحيانا (مدائن صالح) وأحيانا اخرى (الشراة) (١)

أول ذكر للأنباط كان لدى المؤرخ ديودور الصقيلي الذي وصف مقاومة المقاتلين النبطيين وهم يدافعون عن مدينتهم سلع بالشجاعة، وكان عددهم يقارب العشرة آلاف فارس يقاتلون ضد القائد اليوناني (انتيكون) وذلك سنة ٣١٢ ق.م. لمنع دخوله الى مدينة سلع. وكان الملك النبطي الحرث الثالث (فيلهلين) ٨٧ - ٦٢ ق.م. قد فتح دمشق سنة ٨٥ ق.م. التي كانت تشكل بقايا مملكة أرامية. وظلت دمشق تحت سيطرة النبطيين حتى نهاية أخر ملك نبطي وجدت نقوشه في منطقة (ضمير) على بعد (٤٠ كم) شرق دمشق يرجع تاريخه الى عام ٩٤ ميلادية. وقد عاش في دمشق في تلك الفترة القديس بولس لمدة قاربت (٤٠) سنة. حيث كان قد القي القبض عليه وهو يهدي الناس الى المسيحية، وسجن لفترة قصيرة تحت رحمة نائب الملك حرثة النبطي، لكن القديس بولس أستطاع بمعاونة إتباعه الفرار من السجن الى مدينة افسس.

ظلت سلع صامدة ضد هجمات الجيش اليوناني، ومن ثم الجيش الروماني، مع سعي أهلها الى جعل علاقاتهم طيبة مع الرومان، الى ان قرر الإمبراطور تراجانوس (تراجان) ٩٨ - ١١٧ م ان يضم مملكة الأنباط الى ايالة فلسطين والجزيرة، فأوكل المهمة الى قائده (كورينليوس بالما) الذي فتح عاصمة الأنباط واسقط مملكتهم عام (١٠٦) وأبدل أسم العاصمة الى بيترا Petra أي الصخرة باللغة اليونانية.

وقد ضعفت مكانة الأنباط وعاصمتها بترا او البتراء كمركز رئيسي لتجارة القوافل في الهلال الخصيب والجزيرة بعد ان أكمل الرومان الطريق الروماني Roman Strata وهو طريق صحراوي معبد بالأحجار والحصى يمتد من دمشق الى بصرى او بصطرى وهو استمرار للطريق الروماني الذي كان يمر على الرصافة او سرجيوبوليس وتدمر الى دمشق. ومن بصرى الى اطراف الجزيرة بدلا من بيترا او البتراء. وترك الرومان البتراء تدريجيا وبنوا مدنا جديدة في شرق الاردن من بينها كيراسا (جرش) وفيلادلفيا (عمان) التي بنيت على أنقاض مدينة قديمة هي ربة عمون الكنعانية، وغيرهما. (٢)

وأضطر النبطيون في القرن الثاني الميلادي الى الاهتمام بالرعي والزراعة والري من مناقع الأرض المنخفضة وفي بناء السدود، ولعل الرومان كان لديهم دور في تشييد هذه السدود. كما بنى الرومان في المدن النبطية مسارح كبيرة من بينها مسرح في كيرسا (جرش) لا يزال حافلا ومسرح أخر في البتراء اضافة الى ما كان مشيدا فيها من معبد كبير فوق مرتفع يتسم بالطابع الكنعاني ويحتوي على مذبح ومسلة تقوم في مداخل المعبد. واهتم ملوكها وعلية القوم في البتراء ببناء قبورهم في داخل صخورها الحمر وزينوا عاليها بأعمدة ونقوش متأثرة بالفن الروماني الهلنستي ومن بينها ما يدعى اليوم (بالخزنة).

وقد تطورت الكتابة النبطية الى لغة توضحت في كتابات نقشت او حفرت على معالم او على شواهد للقبور بين القرن الأول قبل الميلاد حتى القرن السادس الميلادي. وكانت الكلمات المكتوبة تشبه السريانية، إما الخط النبطي فهو مشتق من الخط الآرامي. وقد أثرت اللغة الآرامية ومن بعدها اللغة السريانية في كتابة الأنباط وعلى تكوين المادة اللغوية العربية في شمال الجزيرة، كما يتضح لنا من الخط النبطي الذي وجد منقوشا على ألواح حجرية، وتداخلت مع تعابير ومع التراكيب اللغوية العربية حتى أمكن مع الزمن تحويلها الى كلمات عربية بخط يشبه اولا الخط السرياني ثم اقترب تدريجيا من الخط العربي غير المنقوط والمدغم في بعض حروفه كما يتضح لنا من نقش (آب بن مقيمو) ونقش (فهر بن سلى) في شرق الاردن، وغيرهما (٣)

ومن الجدير بالذكر ان معظم المؤرخين العرب خلطوا في تواريخهم بين النبط والآراميين والسريان، منه وصف الطبري لمقابلة خالد بن الوليد لعبد المسيح بن بقيلة في الحيرة، وحديث والي العراق الحجاج عند بناء واسط مع أهالي المنطقة (كشكر)، ومنه قول المسعودي في (التنبيه والإشراف) ان الأنباط هم السريان، وكذلك قول ياقوت الحموي بان (السريانيين هم العرب والآراميين، وأصبحت اللغة السريانية المنحدرة من اللغة الآرامية لغة طقوسهم وثقافتهم في الطب والفلسفة والمعرفة الى جانب اللغة العربية وذلك حتى الفتح العربي لسوريا في منتصف القرن السابع الميلادي. (٤)

ومن الجدير بالذكر ان الخزنة او خزنة فرعون التي تشكل ألان واجهة البتراء هي مدفن بني في القرن الأول الميلادي يعتقد انه يعود للملك النبطي مالك الثاني بن الحارث (٤٠ - ٧٠ م) الذي كانت زوجته تدعى الملكة شقيلة. وان الدير فيها الذي يعود الى القرن الرابع الميلادي وردت إخباره في المصادر السريانية بأسم دير بطرا.

المصادر

١) الحموي، شهاب الدين ياقوت (ت ٦٢٦ هجري) معجم البلدان. بيروت: دار إحياء التراث، د. ت. (صـ ٥٨ - ٥٩)
٢) ولفنسون، إسرائيل. تاريخ اللغات السامية. بيروت: دار القلم، د.ت. (صـ ١٧٢ - ١٣٧)
٣) جونز، ارنولد. مدن بلاد الشام او مدن الولايات الرومانية الشرقية، ترجمة إحسان عباس. عمان: دار الشروق، ١٩٨٧ (صـ ١١٧ - ١٢٢)
٤) زيادة، نيقولا. المسيحية والعرب.